

الرواية التاريخية عند محمد فريد أبو حديد:

رواية «ابنة المملوك»

قراءة فى العلاقة بين الأدب والتاريخ

د. قاسم عبده قاسم

ومن حضارة لأخرى، ومن مكان إلى مكان، ومن أمة إلى أمة غيرها. كانت قراءة الإنسان الأولى قراءة أسطورية، إذ ولد التاريخ فى رحم الأسطورة وتربى فى حجرها - شأنه فى ذلك شأن بقية معارف الإنسان - وبدأ بداياته الأولى فى رحابها. وكانت القراءة الأسطورية للتاريخ ترقيعاً للذاكرة الإنسانية التى سقطت منها فى أيامها الباكورة أحداث الماضى. ولجأ الإنسان إلى الأسطورة، مغامرة العقل البشرى الأولى، باحثاً عن إجابة السؤال/التحدى "لماذا؟" بعدها جاءت قراءة التاريخ لتبرير

التاريخ ممارسة ثقافية / اجتماعية ارتبطت بالوجود الإنسانى منذ فجر التاريخ، كما كانت إحدى الوسائل التى توصل بها الإنسان للوصول إلى إجابة على السؤال المحير المضى الذى لازم مسيرة الإنسان فى الكون والذى يبدأ بكلمة "لماذا؟" قلق الإنسان الوجودى وتقلب وجهه فى الكون بحثاً عن الإجابة جعل المعرفة التاريخية إحدى أدوات الإنسان للبحث عن الإجابة المناسبة للسؤال الذى رافقه منذ الأزل وإلى الأبد. وفى سعى الإنسان الدائب للعثور على الإجابة المرجوة تعددت قراءاته للتاريخ من عصر إلى عصر،

أصحاب الديانات الثلاث، كانت وما تزال قراءة تبحث عن إجابة شافية للسؤال اللغز "لماذا؟".

وسار الإنسان شوطاً أبعد فى صنع وجوده على الأرض، وقامت حضارات، وتدهورت حضارات غيرها؛ ولازمته القراءات المختلفة للتاريخ فى هذه الرحلة التى لم تتم بعد فى رحاب الزمان. واكتشف الإنسان إن التاريخ فعاليات بشرية وأحداثه مسئولية إنسانية. وظهرت فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية قراءة إنسانية "تاريخية" للتاريخ - تجسدت فى كتابات الكافيجى والسخاوى والسيوطى فى تاريخ الكتابة التاريخية وفيما كتبه عبد الرحمن بن خلدون عن فلسفة التاريخ وأسس النظرية وبنيته المنهجية، فضلاً عن الكتابات التاريخية التطبيقية لعدد كبير من المؤرخين المسلمين - وعلى مدى التاريخ الطويل للثقافة العربية الإسلامية تعددت أنماط الكتابة التاريخية تجسيدا لهذه القراءة الإنسانية "التاريخية" للتاريخ.

وإذا كانت تجليات هذه القراءة الإنسانية "التاريخية" للتاريخ قد أشرقت فى كتابات هردوت وثوكيديديس وبوليبيوس... وغيرهم فى بداية تاريخ الفكر التاريخى الغربى بمعناه الواسع، فإن سيطرة الكنيسة وسيادة القراءة الدينية طوال العصور الوسطى قد أجلت ظهورها مرة أخرى حتى القرن الثامن عشر.

سلطة ملوك الزمن القديم، حكومات الآلهة أو أشباه الآلهة، ونوابهم على الأرض لتبرير السلطة المطلقة للفرعنة والآشوريين والحيثيين والبابليين... وغيرهم. وكانت هذه القراءة الاستبدادية التبريرية إجابة على السؤال الذى يبدأ بكلمة "لماذا؟".

ومضى زمن جاءت بعده القراءة الدينية للتاريخ، إذ تعتبر المادة "التاريخية" التى يتضمنها كتاب اليهود المقدس التوراة أولى الكتابات التاريخية التى تجسد هذه القراءة الدينية للتاريخ تجسيدا لفكرة التاريخ اليهودية، من حيث دورهم فى الكون، وعلاقتهم بالله، وعلاقتهم ببقية شعوب الأرض، ثم مصيرهم النهائى بعد نهاية الوجود الدنيوى. وحين انتصرت المسيحية فى القرن الرابع الميلادى صاغ أو غسطين فكرة التاريخ المسيحية الكاثوليكية، وصاغ أوريجين السكندرى وباسيل فكرة التاريخ المسيحية الأرثوذكسية على أساس من فكرة الخلاص المسيحية.

وجاء الإسلام بالقرآن يحمل مادة تاريخية تجسد فكرة التاريخ عند المسلمين داخل إطار الفكرة القرآنية عن دور الإنسان فى إعمار الكون، وخلافة الله فى الأرض ودور المسلمين فى الحياة الدنيا وعلاقتهم بغيرهم، ومصيرهم فى الحياة الآخرة تجسيدا لسنة الله فى خلقه التى لن تجد لها تبديلا.

هذه القراءة الدينية، بتجلياتها عند

الفكر التاريخي عن الإبداع منذ أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي كان موازياً للتدهور الذي شاب الإنتاج الأدبي في الثقافة العربية الإسلامية منذ ذلك الحين فصاعداً. وبينما لم يشهد الفكر التاريخي بعد هذه المرحلة سوى جامعين من كتاب الحوليات، أهمهم ابن إياس في الربع الأول من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ثم الجبرتي في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. وبينهما، وبعدهما، جاءت كتابات تاريخية أشبه بالصمت. ومن اللافت للنظر أيضاً أن الأدب دخل في منحني التدهور والذبول في الوقت نفسه.

وفي التراث الثقافي الغربي، بمعناه الواسع، ظل التاريخ فرعاً من فروع الأدب حتى القرن التاسع عشر على أقل تقدير. وبدأ التاريخ خطواته صوب الاستقلال بعد أن بدأ رد فعل العلوم الإنسانية والاجتماعية تجاه الانتصارات التي أحرزتها العلوم الطبيعية.

وثار السؤال حول طبيعة التاريخ هل هو علم بالمعنى الفيزيقي، أم أنه فرع من الأدب Art؟ ومن المثير أن البعض ترجموا كلمة Art الإنجليزية بمعنى فن، وبدأوا يطرحون في كتاباتهم سؤالاً سخيلاً مؤداه هل التاريخ علم أم فن؟ وجاءت القضية المفتعلة في هذه الكتابات أشبه برفع الصدى الممسوخ للقضية الأصلية في

واللافت للنظر في هذه الرحلة التي سافرت فيها المعرفة التاريخية من الأسطورة إلى العلم، ارتبط التاريخ بالأدب على نحو مثير وجذاب، فما كتبه ثوكيديديس وتاكيثوس في التراث الكلاسيكي نموذج لامتزاج الأدب بالتاريخ، أو هو دليل على أن التاريخ كان يعد فرعاً من فروع الأدب. وقد أوصى شيشرون، الخطيب الروماني الشهير، بأن يتسلح الخطيب بالمعرفة التاريخية لأن ضرب الأمثلة التاريخية دليل على التفوق البلاغي ولم يكن التاريخ يدرس مستقلاً، وإنما باعتباره من الوسائل البلاغية والأدوات الخطابية.

كذلك فإن التراث العربي الإسلامي ربط التاريخ والأدب في نسيج واحد بشكل مدهش، إذ يجد القارئ في كتب التاريخ كثيراً من الأدب، كما يجد القارئ في كتب الأدب كثيراً من التاريخ. وإذا كنا نجد لهذا تفسيراً في البنية العلمية الأساسية للمفكرين المسلمين من ناحية، وفي خصائص الثقافة العربية الإسلامية التي أخذت بمبدأ وحدة المعرفة من ناحية ثانية، فإننا ندرك أن تعدد نواحي النشاط العقلي للمفكرين المسلمين - مع بروز كل منهم في تخصص بعينه - كان إفراساً للبيئة العلمية والفكرية التي عاش أولئك المفكرون في رحابها وعلى الرغم من هذا، وربما بسببه، ظل الأدب والتاريخ على علاقة وثيقة ذات طبيعة جدلية. ومن المثير للانتباه أن توقف

فإنه يلتزم أيضاً بالإطار العام للزمن التاريخي، ولكنه من ناحية أخرى يتمتع ببعض الحرية فى الخروج من إطار الزمن دون أن يخل بالسياق التاريخي العام. وفى الرواية التاريخية التى تختلط بين عمل الروائى وعمل المؤرخ غالباً ما نجد الالتزام بالسياق التاريخي العام واضحاً فى صفحات العمل الروائى.

والمكان أحد الأركان الثابتة، نسبياً، فى العملية التاريخية. ومن الأقوال الشائعة فى أوساط المؤرخين إن الجغرافيا مسرح التاريخ، وهو ما يجعل المؤرخ غير قادر على تجاهل الجغرافيا فى دراسته للتاريخ. وهنا نجد أن للروائى قدراً أكبر من الحرية فى التعامل مع المكان، إذ قد يجد أن الصدق الفنى لروايته يستوجب تجاوز الحقائق الجغرافية وربما ابتدع الروائى لروايته مكاناً تجرى عليه أحداث روايته بتفاصيل فنية خيالية تخدم البناء الفنى لروايته دون أن تفرض عليه قيود المكان. ولكن الحدود العامة لمكان الرواية التاريخية تظل ثابتة ومتماشية مع الحدود العامة للمكان نفسه فى الواقع التاريخي.

أما الإنسان، صاحب الفعل فى التاريخ وفى الرواية، فهو يمثل مشكلة بالنسبة للمؤرخ لأن المؤرخ يبحث فى دور الإنسان الفرد وفى دور الجماعة الإنسانية أيضاً. فهو يدرس دور الفرد التاريخي فى سياقه الاجتماعي، كما يدرس التطور التاريخي للمجتمع

الفكر الأوروبى. على أية حال، كان طرح القضية بهذا الشكل فى الفكر الأوروبى الحديث من أهم دلائل العلاقة الوطيدة بين التاريخ والأدب. وبينما حاول البعض أن يجعلوا منه تاريخاً بالمعنى الفيزيقي الصارم، مثل رائكه وأتباعه، أصر البعض الآخر على تأكيد الخاصية الشعرية فى التاريخ وعلى قيمته التعليمية، وعلى كونه شكلاً من أشكال الأدب.

على أية حال، فإن العلاقة بين التاريخ والأدب علاقة حميمة ذات طبيعة جدلية، كما أن الارتباط بينهما يكاد يكون ارتباطاً عضوياً. وفى مجال الرواية التاريخية تتجلى العلاقة بين الأدب والتاريخ فى أوضح صورها وأكثرها جمالاً. بيد أننا ينبغي أن نتوقف قليلاً لندرس العلاقة بينهما والفرق بين وظيفة المؤرخ ووظيفة الروائى. صحيح أن كلا منهما يعمل فى إطار منظومة ثلاثية الأركان (الإنسان. الزمان. المكان) لكن نظرة كل منهما تختلف عن نظرة الآخر إلى هذه المنظومة.

فالزمان هو إطار التاريخ، وهو الذى يكسب أية حادثة تاريخية "تاريخيتها". وكثيراً ما يحلو للبعض أن يصف التاريخ بأنه "علم متزمن"، ومن هنا فإن التحديد الصارم للزمان من أوجب واجبات المؤرخ فى بحثه عن الحقيقة، أو فى بحثه عن العلاقة السببية بين الأحداث التاريخية. أما الفنان المبدع فى الرواية التاريخية،

فنية حظيت بالموافقة. هذا التداخل بين الأدب والتاريخ، والناجم عن حقيقة أن موضوعها المشترك هو الإنسان هو الذى جعل الحدود بين الأدب والتاريخ حدوداً واصله غير فاصلة. وفي منطقة الحدود بينهما نجد الكثير مما ينير السبيل أمام الباحثين فى حقل الأدب وميدان التاريخ.

وهنا نجد أنفسنا فى مواجهة مسألة المصالحة بين الصدق الفنى والصدق التاريخى. إذ أن الدراسة التاريخية بمنهجها المتعددة التى تطورت عبر العصور، بحكم اختلاف قراءة التاريخ من عصر لآخر، ومن مجتمع إلى مجتمع غيره، تتميز بالصرامة التى تسعى إلى استرداد الحادثة التاريخية من ذمة الماضى وصولاً إلى إجابة سببية تفسيرية للسؤال الذى يبدأ بكلمة "لماذا؟" وهى بهذا الشكل تناسب المتخصصين وتحصر نفسها داخل نطاق المؤسسات الأكاديمية، فضلاً عن أنها تتسم بالجفاف الذى لا يناسب العقلية العامة التى تسعى، فى الوقت نفسه، إلى معرفة ذاتها من خلال المعرفة التاريخية البسيطة التى يمكن للأدب والفن أن يقدمها ممزوجة بالعناصر الفنية والخيالية. وهذا هو فضل الرواية التاريخية المشكور. فإذا كانت الدراسة التاريخية التى يقوم بها المؤرخ تقدم لنا رؤية جزئية لفترة تاريخية فى بعديها الزمانى والمكانى، فإن الرواية التاريخية تقدم لنا صورة

الإنسانى فضلاً عن اهتمام التاريخ بدراسة مسيرة البشر الحضارية عبر الزمان الإنسانى. وفى هذا كله يجد المؤرخ نفسه أمام خليط مذهل مربك من الأسئلة التى تبدأ كلها بكلمة "لماذا؟"

ويجتهد المؤرخ فى البحث عن الإجابة المناسبة، ولكنه لا يهتدى أبداً إلى الإجابة الشافية الوافية. ولكن الإنسان أطوع بالنسبة للروائى، فالفنان فى الرواية التاريخية يحتفظ بالمقومات العامة للشخصيات التاريخية المعروفة، وهو أيضاً يتحرك داخل الأطر العامة للمجتمعات التى يختارها مجالاً لروايته التاريخية، ولكنه يسد الفجوات والنقص من إبداعه فيكتب عن الجوانب الإنسانية والعاطفية والنفسية التى تتجاهلها المصادر التاريخية التقليدية وتقدم لنا "البعد الثالث" للشخصية التاريخية التى يقدمها التاريخ فى بعدين فقط هما الزمان والمكان - إذ يقدم لنا الروائى البعد العاطفى والوجدانى للشخصية. ومن ناحية أخرى فإن للفنان أن يبدع من خياله شخصيات فرعية وجانبية يطرح من خلالها رؤيته ورسالته الفنية.

وهكذا، فإنه بينما اختلف المؤرخون وتعالى صراخهم حول دور الإنسان فى التاريخ استغل الروائيون حرية الفن ليقدموا الإنسان فى الرواية بصورة

التاريخية التي اختارها مراحا لعمله الفني.

وتقوم المشروعات العلمية فى اختيار رواية "ابنة المملوك" لهذه الدراسة على أساس أنها أولى روايات محمد فريد أبو حديد التاريخية، بل إنها الرواية الثانية فى إبداعه الأدبى كله بعد رواية "مذكرات المرحوم محمد".

تتناول هذه الرواية فترة حرجة من تاريخ مصر فى مطلع القرن التاسع عشر، وقد حدد المؤلف لنفسه الإطار التاريخى فى عنوان الرواية التى وصفها بأنها "رواية تاريخية مصرية تمثل فجر نهضة مصر أيام محمد على بين سنتى ١٨٠٤ - ١٨٠٧...". وهى الفترة التى شهدت صعود نجم محمد على وارتفاع قامته السياسية من غمار الفوضى التى أعقبت خروج الحملة الفرنسية خائبة من مصر سنة ١٨٠١م.

منذ البداية نلاحظ أن المؤلف مزج بين الحقائق التاريخية، السياسية والاجتماعية، التى التزم بها بدقة شديدة، وبين الصياغة الفنية لروايته بشكل سهل سلس.

فتمة قصة حب تبدأ خيوطها الأولى فى بنى يوسف بقصر الأمير عمر بك، أحد أمراء المماليك، عندما تنجح ابنته فى انقاذ فتى هارب من قبيلة حرب

فنية كلية تضيف البعد العاطفى الوجدانى بعداً ثالثاً تدخل من خلاله عناصر الإبداع الفنى. فبالقصص الفرعية، والشخصيات الدرامية، وأسلوب الروائى - كلها تضفى العناصر الجمالية اللازمة لكسر حدة الصرامة المنهجية والجفاف الذى يميز الدراسة التاريخية.

ولا يعنى هذا أننا نفاضل بين التاريخ والأدب، لأن العلاقة بينهما جدلية بحيث يدخل كل منهما فى لحة الآخر وسداه، فالأدب والرواية التاريخية خصوصاً تستوحى المخزون التاريخى وتقتبس منه النماذج الإنسانية، وتستعير منه الفترات التاريخية، والصورة الاجتماعية. ولكن الوظيفة الاجتماعية/ الثقافية للأدب تجعله يقدم هذا كله فى شكل مختلف عن الدراسة التاريخية. ومن ناحية أخرى، فإن الأدب يمثل مصدراً هاماً من مصادر المؤرخ. ذلك أننا لا نستطيع أن نزعم أننا نفهم مجتمعاً ما دون أن نقرأ نتاجه الأدبى الذى يقدم لنا المشاعر والأحاسيس والمواقف الوجدانية التى لا نجدها فى المصادر التاريخية الأخرى.

وفى رواية ابنة المملوك" لمحمد فريد أبو حديد، نجد الكثير من شروط الرواية التاريخية التى يمتزج فيها الصدق التاريخى بالصدق الفنى من ناحية، كما تعكس صفحاتها ذلك القدر الكبير من المعرفة التاريخية التى ميزت المؤلف لا سيما فى الفترة

تجعل القارئ يحس سخونتها بين السطور .

(أنظر مثلاً مشهد حوارهِ العنيف مع عمر بك ص ٢٢ - ص ٢٤، وحواره مع إبراهيم بك ص ٤٠ - ص ٥١) كذلك فإن الألفى بك شخصية تاريخية حقيقية، وإن لم يهتم بها المؤلف كثيراً وجعله دائماً فى خلفية الصورة، كما أن الحديث عنه بضمير الغائب فى صفحات الرواية. وكانت المرة الوحيدة التى قابلنا فيها الألفى بك عندما قبض رجاله على الفتى العربى وساقوه إلى خيمته (ص ١٥٢ - ص ١٦٤)

ويمكن أن نقول نفس الكلام عن شخصية إبراهيم بك، مع فارق بسيط هو أن الروائى جعله حاضراً فى المشاهد الأولى من روايته، بنفس صفاته التاريخية تقريباً، وإن جعل دوره الدرامى تمهيدياً قصيراً (ص ٤٠ - ص ٥١). ونكتشف مدى وهن شخصية إبراهيم بك وضعفها فى حوارهِ مع جماعة العلماء، فقد توقف الرجل عاجزاً بين مطالب الناس العادلة وجبروت البرديسى الذى لم يردعه سوى تجمهر الناس وهتافهم الساخر بأغنية مطلعها "إيش تأخذ من تفليسى يا برديسى" (ص ٥٢). ومن المهم أن نشير إلى أن المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى أورد نفس العبارة فى تاريخه المشهور.

وهو ما يشى بأن الأستاذ أبو حديد

بالحجاز قتل أبوه فى حروب الدولة السعودية الأولى والحركة الوهابية التى تولى إبراهيم باشا ابن محمد على الإجهاز عليها وتدمير عاصمتها الدرعية لحساب السلطان العثمانى فى مرحلة لاحقة.

هكذا تبدأ الرواية التاريخية بذاية روائية/ تاريخية حقاً (ص ١٢ - ص ٣٠). فالحدث التاريخى، أى تحالف ابن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب والنشاط العسكرى الذى نجم عن هذا التحالف، حدث تاريخى حقيقى سواء من حيث مداه الزمنى أو من حيث نتائجه السياسية. لكن الحدث الفنى الروائى وهو قصة الحب التى بدأت بين الفتى العربى "على" والفتاة "حورية" إبنة المملوك من إبداع خيال الروائى. ومن ثم فإن التفاعل بين الأدب والتاريخ يفرض نفسه فى الصفحات الأولى لرواية محمد فريد أبو حديد.

من ناحية أخرى، نجد فى ثنايا الرواية بعض الشخصيات التاريخية الحقيقية بلامحها التى سجلتها أقلام المؤرخين وازدادت ثراءً وغنى وعمقاً بفضل التفاصيل الفنية التى خطها قلم الروائى، فالبرديسى المتآمر، وقسوته فى فرض الضرائب وتحصيلها، وغلطسته وغروره، شخصية تاريخية حقيقية سجلها قلم محمد فريد أبو حديد فى صورة فنية تقارب الصورة التاريخية وتمتاز عنها بالحيوية التى

حيوية بفضل اللمسات الفنية الروائية التى أضافها محمد فريد أبو حديد على الشخصية التاريخية الخارجة من بطون المصادر التاريخية. ومن المعلوم أن السيد عمر مكرم أحد الزعامات الشعبية التى أفرزتها تلك المرحلة الحرجة من تاريخ مصر. كما حدثتنا الرواية عن خورشيد باشا والى العثمانى الذى خلعة الباب العالى، على مضض، استجابة لضغوط القيادات الشعبية المصرية وتولى مكانه محمد على باشا الذى جاء بفرقته العسكرية ليشق طريق مجده السياسى فى غمار الفوضى السياسية السائدة آنذاك.

كذلك نجحت الرواية فى تصوير الصراع السياسى بين الفرقاء للاستئثار بالسلطة (صفحات ٧١ - ٧٩ - ٨٨ - ٩٠ - ٩٥ - ٩٦)، كما أجاد محمد فريد أبو حديد فى وصف دور أبناء البلد، واعتزازهم بهذا الدور، فى تخليص البلاد من الحملة الفرنسية من قبل ثم إصرارهم على إقالة خورشيد ومساندتهم لمحمد على.

وإذا كانت الرواية لم تسهم بقدر كاف فى وصف الحياة الاجتماعية على الرغم من وصف مؤلفها بأنها رواية تاريخية، فربما يمكن تفسير ذلك من خلال مفهوم التاريخ السائد فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين الذى كان مرادفاً للأحداث السياسية

التزم بالحقيقة التاريخية وإن قدمها فى سياق فنى شديد الطواعية. ولم يكن الصدق التاريخى الذى ألزم به أبو حديد نفسه على حساب الصدق الفنى.

وفى الصفحات من ٥١ إلى ٥٤ من الرواية نجد أنفسنا أمام مشهد مزج بين التاريخ وفن الرواية على نحو أخذ وبشكل شديد السلاسة، فإبراهيم بك والبرديسى والعلماء المتحدثون باسم الشعب فى حوار حول قضية من الطراز السياسى/ الاجتماعى الذى شكل العلاقة بين الحاكم والشعب فى زمن كان الحكام يعتبرون أنفسهم المالكين للموارد العامة وأن من حقهم أن يفرضوا على الناس ما يشاءون من الأموال والمغارم لتمويل طموحاتهم وأطماعهم ومغامراتهم. ولم يكن أمام الشعب سوى اللجوء إلى المثقفين من العلماء باعتبارهم القادة الطبيعيين لهم من ناحية، ولأنهم صوت الشريعة والقانون من ناحية أخرى.

هناك شخصيات تاريخية أخرى كثيرة فى الرواية، لكن أهمها الشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف الذى وصفته الرواية بلامحه الشخصية، كما أفاضت فى تتبع دوره التاريخى فى الفترة التى وقعت فيها أحداث الرواية على نحو مزج بين التاريخ والأدب ببساطة وسهولة بحيث ظهر السيد عمر مكرم بشخصيته التاريخية المعروفة يفيض

الوالى خورشيد لينفرد بالأمر، كما أنه يضرب خصومه السياسيين بعضهم ببعض، ويضع الخطط العسكرية للقضاء عليهم جميعاً (ص ١٩٧ - ص ٢٠٩). لقد كانت الأوصاف التى تصف بها الرواية محمد على باشا على لسان أشخاص الرواية، التاريخيين منهم والخياليين، تقدم لنا انطباعات الناس المختلفة عن ذلك الرجل الذى رأى فى الفوضى السياسية وضعف الدولة العثمانية فرصة مثالية للفوز بعرش مصر.

ولم يظهر محمد على فى صفحات الرواية سوى بعد تمهيد طويل تحدثت عنه الرواية أثناءه بضمير الغائب (ص ١٣٠ - ص ١٣٣). ويظهر محمد على للمرة الأولى فى لقاء بينه وبين السيد عمر مكرم والفتى العربى على (ص ٢٠١). ثم تعرض الرواية للأحداث التى أدت إلى سقوط والى العثمانى خورشيد باشا (ص ١٩٢ - ص ١٩٩)، وتوضح بطولات أبناء البلد فى مواجهة الأتراك، حتى ينزل خورشيد من القلعة مرغماً ويدخل محمد على بجنده إليها (ص ٢٢٢).

ولم تغفل الرواية عن تسجيل أعمال السلب والنهب التى قام بها جنود مختلف الفرق العثمانية من الولاة والأرناؤوط والأتراك، وتفكك عرى الانضباط العسكرى بين جنود تلك الفرق واحتكاكهم المستمر بأبناء

والعسكرية، ولم يكن التاريخ الاجتماعى قد حظى بالموافقة والاعتراف الذى يحظى به الآن. ومن ثم، فإننا نجد رواية "ابنة المملوك" تحفل كثيراً بوصف تفاصيل ملابس الممالك والأتراك والباشا، وتفاصيل الأثاث فى بيوتهم ولكنها تهمل ذكر تفاصيل ملابس السيد عمر مكرم أو الشخصيات التى تمثل أولاد البلد. بل إن المؤلف لم يجشم نفسه عناء وصف المقهى الذى كان بعض الشخصيات تلتقى به. والاستثناء الوحيد فى الرواية كلها يتمثل فى وصف المولد بالريف. وهو وصف صور المولد تصويراً تاريخياً وفنياً يفيض حيوية ويعتنى بالتفاصيل الدقيقة مثل مسابقات الخيل والرماحة من الممالك الراغبين فى استعراض مهاراتهم (ص ١٠٤ - ص ١٠٧). كذلك لم تخل الرواية من بعض لمحات خاطفة عن مظاهر الحياة فى الريف المصرى، وأحوال الفلاحين، وعلاقتهم بالبكوات الممالك. أما أحداث صعود محمد على السياسى، وملامح شخصيته، فقد كانت الرواية فيها أقرب للتاريخ منها إلى الأدب. فنحن نرى فى صفحات الرواية رجلاً يجمع بين البساطة والدهاء والقوة. وهو يجيد استخدام عناصر القوة السياسية المتاحة أمامه تماماً، فهو يتوود إلى الزعامة الشعبية ممثلة فى السيد عمر مكرم، ويستخدم أبناء البلد لتحقيق مآربه السياسية دون أن يبدو ظامعاً ظامحاً حتى يتم عزل



الفقرات الأخيرة من روايته صياغة شعبية، فيحدثنا عن تلك السيدة الغامضة التي كانت تحرص باستمرار على زيارة أحد القبور عند سفح هضبة الأهرام بما يوحي أن تلك السيدة هي حورية ابنة الملوك، وأن الراقِد في القبر هو حبيبها الفتى العربى.

لقد كان محمد فريد أبو حديد فى هذه الرواية فناناً ومؤرخاً، وتكشف صفحاتها عن أن الرجل كان على إطلاع واسع بتاريخ تلك الفترة، إذ أنه وضع الشخصيات والأحداث التاريخية فى سياقها الصحيح وأضفى عليها حيوية من خلال دقائق التفاصيل وكلمات الحوار. كما أنه استخدم الحوار فى أحيان كثيرة لرسم الملامح النفسية والعقلية للشخصيات التاريخية.

إن رواية "ابنة الملوك"، تتضافر فيها عناصر الأدب وعناصر التاريخ بشكل أخاذ، فهي قصة حب مأساوية، إذ تنتهى بموت البطل ضحية الواجب وضحية الحب بين يدي محبوبته فى لحظة أوشك فيها على تحقيق أمنية حياته. والرواية، من ناحية أخرى، تمثل قصة النجاح والصعود السياسى لزعيم سياسى داهية، ورجل دولة من أفضل طراز. وبين الخط الفنى فى قصة الحب والخط التاريخى فى قصة الحكم، سار بنا محمد فريد أبو حديد باقتدار على نحو يقترب من تحقيق المعادلة بين الصدق التاريخى والصدق الفنى.

الشعب المصرى. وهنا كانت الرواية التاريخية متخلفة عن الصورة الحية الشاملة التى رسمتها المصادر التاريخية المعاصرة، ذلك أن رواية "ابنة الملوك" لم تسجل سوى لقطات جزئية متناثرة (ص ٢٦٥ - ص ٢٦٧).

من ناحية أخرى، أشارت الرواية إلى حقيقة تاريخية هامة، وهى محاولات الانجليز السيطرة على مصر، ودسائسهم وجواسيسهم، كما أوضحت مدى حرص محمد على وحذره من الانجليز، وصلابته فى مواجهتهم. ومن ذلك، مثلاً، مشهد المواجهة بين محمد على والانجليز (ص ٢٧٩ - ص ٢٨٧)، والحديث عما جرى فى رشيد لحملة فريزر التى هزمها المصريون والتى تحدثت عنها رواية محمد فريد أبو حديد دون تفصيل.

يختتم الأستاذ محمد فريد أبو حديد روايته بخاتمة جمعت بين الأدب والتاريخ مثلما فعل فى بدايتها. فالبطل الرومانسى يموت وهو يثبت حبه لمحبوبته وولاءه لواجبه فى مشهد مأسوى عاطفى. ثم يحدثنا المؤلف بصورة تقريرية عن مذبحة القلعة الشهيرة التى راح ضحيتها الملوك عمر بك، أحد أبطال الرواية، وصار قصره فى بنى سويف مسكن الحاكم الذى عينه محمد على فى تلك الجهات. ويذكر أن بطلة الرواية واجهت مصيراً غامضاً، بيد أنه يأبى إلا أن يصوغ